وقفـــــة بالعقيق !

للأستاذ علي الطنطاوي

وقفة بالعقيق نطرح ثقلا من دموع بوقفة في العقيق
ماثل بين أربع ماثلات ينزع الشوق من فؤاد علوق
« البحتري »

تتمة ما نشر في العدد الماضي

وأرى عروةَ وقد أقبل من سفره ، فدخل القصر ، وحار الناس كيف ينعون إليه محمداً ، حتى جاء عيسى بن طلحة فدخل عليه ، فقال عروة لبعض بنيه : اكشف لعمك عن رجلي ينظر إليها ، ففعل

فقال عيسى : إنا لله وإنا إليه راجعون ، يا أبا عبد الله ! ما أعدوناك للصراع ولا للسباق ، ولقد أبقى الله لنا منك ما كنا نحتاج إليه : رأيك وعلمك

قال عروة : ما عزّاني أحد عن رجلي مثلك

قال : فما معزيك بمحمد !

فوثب فزعاً يقول : ما له ؟

قال : قد لقي الله

فاصفرّ عروة ثم جلس يسترجع ويقول :

اللهم أخذت عضواً وتركت أعضاء ، وأخذت ابناً وتركت أبناء ، فلئن كنت أخذت لقد أبقيت ، وإن كنت ابتليت لقد عافيت !

* * *

ويتبدل النظر فاذا أنا أرى قصر سعيد بن العاص الذي يقول فيه عمرو بن الوليد :

القصر فالنخل فالجمّـــاء بينهما أشهى إلى النفس من أبواب جيرون

وأرى فيه حركة وازدحاماً ، وأرى على الوجوه سحابة من غمّ ، وعلى الجباه سطوراً من كآبة ، فأغشى القوم أسألهم وأعلم علمهم فاذا هم واجمون ، لأن سعيد بن العاص يحتضر ! وأيّ نبأ في المدينة أروع من موت سعيد ؟ وفيه يقول الفرزدق :

ترى الغرّ الجحاجح من قريش إذا ما الأمر في الحدثان غالا
قياماً ينظرون إلى سعيد كأنهمُ يرون به هلالا

وأدخل القصر فأسمع عمراً ابنه يقول له : لو نزلت إلى المدينة !

فيقول له سعيد : يا بني إن قومي لن يضنوا علي بأن يحملوني على أعناقهم ساعة من نهار ، فاذا أنا مت فآذنهم ؛ فاذا واريتني فانطلق إلى معاوية فانعني له ، وانظر في دَيني ، واعلم أنه سيعرض قضاءه فلا تفعل ، ولكن اعرض عليه قصري هذا ، فاني إنما اتخذته نزهة وليس بمال

وما هي إلا أن يموت فيحمله الناس من قصره حتى يدفنوه في البقيع . ورواحل عمرو بن سعيد متاخة ، فيمزيه الناس على قبره ويودعونه ، ويمضي من ساعته إلى معاوية فيكون أول من ينعاه له . فيتوجع له معاوية ويقول : هل ترك ديناً ؟

فيقول : نعم ، فيقول معاوية : هو عليّ

فيقول : قد ظننّ ذلك وأمرني ألا أقبله منك ، وأن أعرض عليك بعض ماله فتبتاعه ، فيكون قضاء دينه منه

فيقول : اعرض عليّ

فيقول : قصره بالعرصة

فيقول معاوية : قد أخذته بدينه

وقواها ؛ ولكنها كانت لما تذر الخطر والكفاح ؛ فقد لبثت اليهودية مدى حين آمنة مطمئنة في ظل الديموقراطية الظافرة ؛ ولكنها أفاقت مذعورة من هذه الدعة الظاهرية ، ونهضت تكافح طغيان القومية والعسكرية والكنيسة معاً ؛ وكانت هذه اليقظة اليهودية وقود الحركة الصهيونية التي أذكى تيودور هرتسل الكاتب اليهودي جذوتها . وكان هرتسل يشهد مأساة دريفوس وتطوراتها منذ البداية كمراسل لجريدة « نويه فرايه بريسه » النمسوية [1] ، ويصور حوادث المأساة بقلمه اللهب تصويراً قوياً مؤثراً يثير روح الكفاح والمقاومة في الملايين من بني جنسه ؛ واستطاعت اليهودية غير بعيد أن تستجمع قواها ؛ وغدا هرتسل روح الحركة الجديدة التي انتهت بتنظيم الصهيونية السياسية ؛ ثم الفت اليهودية فرصتها أثناء الحرب الكبرى ، واتجهت صوب فلسطين ، وما زالت حتى ظفرت بيعيتها من الحلول بأرض الميعاد والاحتشاد فيها وتحقيق حلمها القديم بالعود إلى أرض سليمان

محمد عبد الله عنان

(١) Die Neue Freie Presse (الصحافة الجديدة الحرة) وهي أقدم الصحف النمسوية وأكبرها

قال نوفل بن عمارة : وكان دين سعيد ثلاثة آلاف ألف درهم ، فاشترى معاوية القصر بألف ألف درهم ، والمزارع بألف ألف ، والنخيل بألف ألف درهم[1]

فيقول عمرو : هو لك على أن تحملها إلى المدينة ، وتجعلها بالوافية .

فيحملها له إلى المدينة ، فيفرقها عمرو فى غرمائه ، وكان أكثرها عدات وعدها سعيد ، فيأتيه شاب بصك فيه عشرون ألف درهم بشهادة سعيد على نفسه ، وشهادة مولى له عليه ، فيرسل عمرو إلى المولى فيقرئه الصك ، فيبكى حين يقرؤه ويقول : نعم ، هذا خطه وهذه شهادتى عليه

فيقول عمرو : ومن أين لهذا الفتى عليه عشرون ألف درهم ؟ وإنما هو مملوك من مماليك قريش.!

فيقول المولى : أنا أخبرك : مرّ سعيد بعد عزله فاعترض له هذا الفتى ، ومشى معه حتى صار إلى منزله ، فوقف له سعيد وقال : ألك حاجة ؟

قال : لا . إلا أنى رأيتك تمشى وحدك ، فأحببت أن أصل جناحك

فقال لى سعيد : ائتنى بصحيفة ، فأتيته بهذه ، فكتب له على نفسه هذا الدين ، وقال : إنك لم تصادف عندنا شيئاً فخذ هذا ، فاذا جاءنا شئ فأتنا

فيقول عمرو : لا جرم والله لا يأخذها إلا بالوافية ، يا غلام ! أعطه إياها ، فيعطيه عشرين ألف درهم وافية

ويجيئه مولى لقريش فيقول : إنى أتيت أباك بابن مولاى (فلان) ، وقد هلك أبوه ليزوجه . فقال : ماعندى ، ولكن خذ ماشئت فى أمانتى

فيقول له عمرو : كم أخذت ؟ فيقول : عشرة آلاف

فيقبل عمرو على القوم فيقول : من رأى أعجز من هذا ؟ يقول له سعيد : خذ ماشئت فى أمانتى ، فلا يأخذ إلا عشرة آلاف ، والله لو أخذ مائة ألف لأديتها

* * *

ويتبدل المنظر ، فأرى العقيق قد ازدحم بالناس حتى كأنه المحشر ، وانتقلت اليه المدينة حتى لم يبق فيها كهل ولا غلام ، ذلك أن خبراً سرى فى المدينة سريان الأمل فى النفوس اليائسة ، فترك الناس ماهم فيه وأقبلوا على قصر سعيد يسمعون منه مالم يسمعوا ... وإذا ابن عائشة وهو أضن خلق الله بالغناء ، وأسوأ الناس فيه خلقاً ، ومن إذا قيل له غنّ ، قال : ألمثلى يقال هذا ؟ وإذا ابتدأ بغناء وقيل له أحسنت ، قطع الغناء مغضباً وقال : ألمثلى يقال أحسنت ؟ وإذا هو يغنى أطيب غناء وأطربه ، فلا ينتهى من صوت حتى يشرع فى آخر ، لايسكت ولا يستريح ، حتى عدّوا عليه مائة صوت ، وإذا خبره أن العقيق طمى وازداد ماؤه ، فاعتصم ابن عائشة بقصر سعيد بن العاص فملأ الماء عرصة القصر ، فصعد على قرن البئر ورآه الحسن بن الحسن ، وكان قادماً على بغلة له وخلفه غلامان أسودان كأنهما شيطانان ، فقال لهما : امضيا رويداً حتى تقفا بأصل القرن الذى عليه ابن عائشة ؛ ففرجا حتى فعلا ذلك ، ثم ناداه الحسن : كيف أصبحت يا ابن عائشة ؟ قال : بخير ! فداك أبى وأمى ، قال : انظر إلى من بجنبك ، فنظر فاذا العبدان ؛ قال : أما تعرفهما ؟ قال : بلى ، قال : فهما حران لئن لم تغنني مائة صوت لآمرنهما بطرحك فى البئر ، وهما حران لئن لم يفعلا لأقطعن أيديهما . فغنى فلم ير الناس أحسن يوماً منه

* * *

ثم أرى فتياناً من فتيان المدينة فيهم يونس الكاتب وجماعة ممن يغنى قد خرجوا إلى وادٍ يقال له رومة من بطن العقيق ، فغنوا ، فأثار غناؤهم أهل الوادى ، فاجتمع اليهم الرجال والنساء حتى كان حولهم مثل مراح الضأن ؛ وأرى محمد بن عائشة مقبلاً معه صاحب له ، حتى يرى جماعة النساء عندهم فيأخذه الحسد ، وتحزّ فى نفسه الغيرة ، فيقول لصاحبه : كيف بك إذا فرقت هذه الجماعة ؟ فيسخر منه صاحبه ، فيهيج ابن عائشة فيأتى قصراً من قصور العقيق فيعلو سطحه ، ويلقى رداءه ، فيتكىء عليه ويغنى بشعر عبيد بن حنين :

هذا مقـــامُ مُطَرَّدٍ هدمت منازله ودوره
نحت عليه عمامه كذباً فعاقبه أميره
ولقد قطعت الخرق به بعد الخرق معتسفاً أسيره
حتى أتيت خليفة الر حمن محمودا سريره
حييتـــه بتحيّة فى مجلس حضرت صقوره

فلا ينقضى الصوت إلا والنساء كلهن تحت القصر الذى

(١) تهذيب تاريخ ابن عساكر ٦ : ١٤٤

هو عليه ، وقد تفوض مجلس يونس ولم يبق فيه أحد !

* * *

وأرى غلاماً خلاسياً ، مديد القامة أحول ، قد ارتقى صخرة في العقيق منفردة ، فاضطجع عليها ضجعة خفيفة ، ثم هب فزعاً وهو يغني غناء ما سمع مثله السامعون ، يزعم أن الشيطان اجراه في مسامعه وهو نائم ، وبعيد الغناء وهو يتصيد الطير بحبالة في يده ، فيمر به شيخا مغني مكة ابن سريج والغريض ، وقد أقبلا على بعيرين لهما يزوران المدينة ويتعرضان لمعروف أهلها ، ويلقيان من بها من صديقهما ، فيسمعان ثم يستعيدان الصوت :

القصر فالنخـــل فالجماء بينهما
أشهى إلى النفس من أبواب جيرون

فيعيده ، وهو مشغول عنهما بصيده ، فيقبل أحدهما على صاحبه فيقول : هل سمعت كاليوم قط ؟ فيقول : لا والله ! فيقول : فما هو رأيك ؟ فيقول : هذا غناء غلام يصيد الطير ، فكيف بمن في الجوبة ؟ أما أنا (فثكلته أمه) إن لم أرجع !

فكرّا راجعين

وكان الغلام (معبد) سيد من غنى صوتاً في الحجاز !

* * *

ويتبدل النظر فأرى حميدة بنت عمر بن عبد الرحمن بن عوف ، وقد خطبها رجل عبشمي من أهل الشام ، فلما أراد أن يرتحل بها وحف بهما الناس يودعونهما سمعت رجلاً يغني بشعر أبي قطيفة :

لا ليت شعري هل تغير بعدنا ... جنوب الصلى أم كهدى القرائن
وهل ادؤر حول البلاط عوامر ... من الحيّ أم هل بالمدينة ساكن
إذا برقت نحو الحجاز سحابة ... دعا الشوق مني برقها المتطامن
ولم أتركنها رغبة عن بلادها ... ولكنه ما قدر الله كائن

فتسقط وقد أغمي عليها ، فيعالجونها كيما تفيق ، فإذا أفاقت سمعته يغني :

ألا ليت شعري هل تغير بعدنا ... قباء وهل زال العقيق وحاضره
وهل برحت بطحاء قبر محمد ... أراهط عزّ من قريش تباكره
لهم منتهى حبي وصفو مودتي ... ومحض الهوى مني والناس سائره

فتغشت بين النساء وسقطت ميتة . . . . . .

* * *

... واضطربت الصورة وتضاءلت ، ثم توارت واختفت ، وإذا صفحة الماء بيضاء ليس فيها صورة ، وإذا المجد والجلال ، والعطر والنور ، وإذا الدور والقصور ، والأنس والحبور ؛ كل أولئك قد غطى عليه الفناء ، وابتلعه هذا السيل الدفّاع ، ثم عاد يجري بين الآكام الجرداء ، وله خرخرة وله دردرة . . .

وإذا كل ما بقي من هذه الدنيا الراسفة ، قهوة قامت على جذوع النخل ، وبئر نصبت عليها ساقية ، وجماعة قد تحلقوا يشربون الشاي ، ويطربون ، وما بهم لو حققت من طرب ؛ وإذا قصر سعيد أنقاض ماثلة ، وإذا سائر القصور تلال من الرمل الأحمر . . . . .

وإذا المجد والجلالة والجا ... كما يطرس السطور البنان !

دمشق — علي الطنطاوي

وزارة المعارف العمومية

إعـــلان

امتحان شهادة الدراسة الثانوية قسم ثان

لســـنة ١٩٣٦

ستكون الكتب المقررة في اللغتين الانجليزية والفرنسية لامتحان شهادة الدراسة الثانوية قسم ثان لســـنة ١٩٣٦ وفق ما يأتي : —

اللغة الانجليزية (لغة أوروبية أولى — أصلية)

(١) قسما الآداب والعلوم

1 — Drinkwater : Abraham Lincoln (Sidgwick)
2 — Masefield : Martin Hyde (Higham)

(٢) قسم الآداب فقط

3 — Further Approach to Shakespeare (Nelson)

اللغة الفرنسية (لغة أوروبية أولى — أصلية)

قسما الآداب والعلوم

1 — A. Daudet - Histoire d'un enfant (Bibliothèque Verte - Hachette)
2 — Corneille - Le Cid (Annoté par petit de Julleville, Hachette)
3 — Molière - Le Misanthrope (Annoté par Lanson. Hachette)